توظيف التراث الديني في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه) ت٨٥٤هـ)

إعداد الدكتور:

عصام محمود أحمد

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب جامعة حلوان

توظيف التراث الديني في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه (ت٨٥٤هـ)

عصام محمد أحمد
قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة حلوان ، مصر .
البريد الالكتروني : essam_abdelgawad@arts.helwan.edu.eg

ملخص البحث :

يعالج هذا البحث قضية الاعتماد على التراث الديني في كتاب من الكتب المهمة؛ هو كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه، وهو أديب وكاتب من أدباء القرن التاسع الهجري (عصر دولة المماليك)، وبخاصة أن هذا الكتاب له طبيعة خاصة؛ إذ يسير على طريقة كتاب القصص الأخلاقية الوعظية التي ترد على لسان الحيوان، ويتشابه في ذلك مع كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ، وقد تنوعت مصادر ابن عرب شاه في كتابه خاصة الدينية منها، ويحاول البحث تتبع مصادر التراث الديني في هذا الكتاب، وهي القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص الوعاظ والنماذج الشعرية والأمثلة التي تحمل توجهات دينية ،وأهميتها ، وكيف وظفها الكاتب في نصه.

الكلمات المفتاحية: توظيف – التراث الديني – ابن عرب شاه – فاكهة الخلفاء – القصص على لسان الحيوان.

Employing the religious heritage in the fruit of the caliphs and the fruit of the humors By Ibn Arab Shah (d. 854 A.H.)

Essam Mohamed Ahmed
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Helwan University, Egypt.
E-mail : essam_abdelgawad@arts.helwan.edu.eg

Abstract:

This paper deals with the reliance on religious heritage in one of the important books which is **fakihat alkhulifa' wamufakahat alzurafa' " by Ibn Arab Shah**. He is the author and writer of the nineth century AH (The era of the Mamluk state).

This book has a special nature. It is one of the moral didactic stories, which is said on the tongue of an animal, as "Kalila and Demna" by Ibn El Muqaffa .Ibn Arab Shah ' s sources have varied in this book, especially the religious sources

The paper is trying to follow the religious heritage found in this book as the Holy Quran, the Hadith , the preachers' stories, and religious questions and how the writer employed them in his text

Keywords : Reliance , Religious heritage, **Ibn Arab Shah ,** is **fakihat alkhulifa'** stories, which is said on the tongue of an animal.

ابن عرب شاه (٧٩١ – ٨٥٤ هـ) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، أبو محمد، شهاب الدين، المعروف بابن عرب شاه: كاتب ومؤرخ وأديب، ولد في دمشق ثم انتقل مع عائلته إلى سمرقند، له أسفار كثيرة، تعلم فيها علوما مختلفة، وكان بارعا في الكتابة والإنشاء والنظم باللغات الثلاث – العربية والفارسية والتركية – واصل رحلاته ونزل أدرنة فاتصل بالسلطان العثماني محمد بن عثمان وعمل عنده في ترجمة بعض الكتب من العربية إلى الفارسية والتركية.

عاد إلى دمشق ثم هبط مصر في أواخر أيامه فأقام في الخانقاه الصلاحية إلى أن توفي. له مؤلفات كثيرة حسنة أشهرها (فاكهة الخلفاء، ومفاكهة الظرفاء – ط) و(عجائب المقدور في أخبار تيمور – ط) و(منتهى الأرب في لغات الترك والعجم والعرب) و(التأليف الطاهر – خ) جزآن، في سيرة الملك الظاهر جقمق. وترجم عن الفارسية إلى التركية كتابا في عدة مجلدات سماه (جامع الحكايات ولامع الروايات) وله في العربية (العقد الفريد في التوحيد) منظومة، و(غرة السير في دول الترك والتتر) وفي شعره العربيّ ركة. ولعل لقب (ابن عرب شاه) عرض له في رحلاته "[1].

تظهر قائمة مؤلفاته بلاغة عالية ومهارة في اللغات المتعددة التي يتقنها مما يؤكد ارتفاع ثقافته وسموها، فهو يمثل مرحلة مهمة من مراحل الأدب العربي، هي مرحلة طالما اتهمت بالضعف والركاكة، هي مرحلة الأدب المملوكي وهي مرحلة عصيبة فقد نزح من دمشق نتيجة اجتياح تيمور لنك لها ليظهر لنا صعوبة تلك الحياة التي عاشها متنقلا من مكان إلى آخر، تظهر لنا كذلك أهمية البحث من خلال إلقائه الضوء على تلك الفترة التي ما زل البحث في تاريخ الأدب يعاني من قلة الدراسات حولها.

(١) – الزركلي: الأعلام، ج٣٢٨/١ وانظر أيضا ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٣٠.

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء كتاب من أهم الكتب التي ألفت في العصر المملوكي، فقد جمع بين الأدب الشعبي المتمثل في الحكايات الشعبية والنقد الاجتماعي والسياسي، قدم فيه ابن عرب شاه وجبة أدبية ثرية، تجعله جديرًا بالدراسة والبحث في المجال النقدي والأدبي، فهو يمثل حلقة من حلقات الإبداع الأدبي على لسان الحيوان، متأثرا في ذلك بكتاب كليلة ودمنة وبعدة مؤلفات سبقته على النهج عدة مؤلفات ذكرها المؤلف " كتاب(كليلة ودمنة) لابن المقفع، والمتمثل بحكمة المطاع (سلوان المطاع)، والمفحم بنظمه العجيب، كل شاعر وأديب، معجز الضراغم الصادح والباغم، وفي غير لسان العرب"(١).

فكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء هو كتاب على غرار كليلة ودمنة، فيه قصص وحكايات على ألسنة الطيور والوحوش والبشر، يتخذ من بنيته شكل العمل القصصي المعتمد على السرد والحكي، فهو عمل قصصي سردي في المقام الأول لكنه يتخذ من عالم الحيوان والطير شخوصه، مسقطًا عليها أفكاره ورؤاه، بحيث تبدو هذه القصص عملًا مسليًا وحكايات طريفة للتسلية وتضييع وقت الفراغ وربما يبدو شكلها مثل تلك القصص الطريفة التي تحكي للأطفال قبل النوم ؛ بيد أن المدقق في هذه الحكايات يقف على رمزيتها القوية في اختيار تلك الشخوص من عالم الحيوان والطير التي تلمح وتشير إلى عالم البشر، وتحكي تلك القصص والحكايات مواقف يمكن الوقوف على المعاني الواسعة التي تقف وراء رمزيتها فعلي القارئ لهذه الحكايات أن يتمعن فيها حتى يقف على معانيها وما تشير إليه.

ومن الطبيعي أن مثل هذه الكتب التي تهدف إلى النصح والإرشاد أن تعتمد بدرجة كبيرة على التراث الديني بدءًا من آيات القرآن الكريم التي تناس

(١) – ابن عرب شاه : فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تحقيق: د محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، ع ٩٤، ٢٠٠٣م، ص:٤٢.

بالموقف المقصود، ويأتي بعد ذلك الحديث النبوي الشريف ثم تأتي الآثار الأخرى مثل أقوال الصحابة إن وجدت، ثم قصص الوعاظ التي تهدف إلى النصح والدعوة بالموعظة الحسنة، وإذا كان ابن المقفع قد حاول الإقلال من هذه المورثات حتى يعمي على موقفه فلا يبين قصده بوضوح، ومع هذا فهم الموقف وقتل بسببه، فإن ابن عرب شاه لجأ إليها مستغلا تمسح الأمراء المماليك في الدين ، وإظهار ولائهم له والدفاع عنه حتى تثبت شرعية حكمهم لأنهم في الأصل مماليك، كانوا عبيدًا أرقاء قبل أن يثبتوا جدارتهم الحربية في هزيمة المغول على يد قطز وبيبرس.

يقف هذا البحث عند نقطة مهمة وهي تتبع المصادر التراثية الدينية التي اعتمد عليها ابن عرب شاه في كتابه، وكيفية توظيفها لتحقيق هدفه؛ ذلك أن الكتاب يتكئ على التراث الديني المتمثل في القرآن الكريم والحديث الشريف والقدسي والشعر الديني والمثل الأخلاقي الذي يحيل إلى توجه ديني بصورة واضحة لا تخطئها العين الفاحصة المدققة، والحقيقة أن ابن عرب شاه نوَّع تلك المصادر بحيث ظهر الكتاب في صورة تجميعية على طريقة المصادر الأدبية مثل؛ الأغاني والآمالي والعقد الفريد وغيرها من الكتب التي انتهجت هذا النهج، ويمكن للمطلع على كتاب فاكهة الخلفاء أن يقف على صدى تلك الأزمات السياسية والعسكرية التي عصفت بالعالم الإسلامي في تلك الفترة من آثار الهجمات القوية المغولية التي عادت بقوة تضرب بغداد وحلب ودمشق على يد تيمورلنك ٨٠٣هـ، وقد عاصر ابن عرب شاه تلك الهجمة صبيا في الثانية عشرة من عمره، وكان حاضرا لاجتياح تيمور لنك لدمشق وحدثت تلك الفظائع تحت سمعه وبصره من سفك للدماء وهتك للأعراض واستباحة لكل المحارم بصورة وحشية.

من هنا يمكننا القول إن هذا الكتاب يطرح جوانب تاريخية وفكرية وثقافية واجتماعية وسياسية في شكل رمزي وتمثل شخوصه الرمزية هذه نماذج وشخوصا وأنماطا متنوعة من عالم البشر، تطرح في إطار أدبي مغلف

بالطرفة والحكمة دروسا في مختلف المجالات معتمدا على البنية اللغوية السردية لأسلوب الحكاية.

يذكر ابن عرب شاه في خطبة الكتاب أسباب اللجوء إلى هذا الأسلوب بالاعتماد على الحيوان في تشخيص حكاياته فيقول: " لأن الوحوش والبهائم والهوام والسوائم غير معتادة لشيء من الحكمة ولا يسند إليها أدب ولا فطنه ولا معرفة ولا تعرف ولا قول ولا فعل ولا تكليف لأن طبعها الشماس والأذى والافتراس والإفساد والنفور والغدران والشرور والكسر والتغريق والنهش والتمزيق فإذا أسند إليها مكارم الأخلاق وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق وسلكت وهي مجبولة على الخيانة سبل الوفاء ولازمت وهي مطبوعة على الكدورة طرق الصفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها وتلقتها القلوب بالقبول والصدور بالانشراح والبصائر بالاستبصار والأرواح بالارتياح لكونها أخبارًا منسوجة على منوال عجيب وآثارًا أسديت لحتها في صنع بديع غريب"(١)

فالأصل في الحيوان أنه لا يملتك الحكمة ومن طبعها الافتراس والأذى والفساد، وهذا هو طبعها الذي جبلت عليه، وهنا تكون المخالفة عن الواقع بالتخيل بعكس الحقيقة؛ من وفاء وعقل وحكمة وخير، فإن هذا يكون دافعا لقبول كلامها والتأثر به، واستقبال قلوب المتلقين لها، والارتياح إليه؛ لما فيها من عجيب الأسرار، فهنا يكمن الجمال في حسن التخييل وبراعة الإبداع من الكاتب، ورمزية الفكرة التي يرغب في التعبير عنها بما يهيئها للقبول عند المتلقي ، ويحميه من مندوحة المباشرة خاصة للملوك، الذين ترتاح نفوسهم وتطيب لسماع تلك الحكايات البديعة عن الحيوانات التي تصير عاقلة بخلاف

(١) – ابن عرب شاه : فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، ص: ٣٨.

واقعها، فيعدلون مع الرعية ويهتمون بهم ، فكيف يكونون أقل من تلك الحيوانات غير العاقلة(١)

كذلك تبدو جلية فكرة المخالفة للمعتاد والمألوف سبيلا للفت الانتباه واجتذاب القلوب، بهدف الإقناع. هكذا يطرح ابن عرب شاه رؤيته في تعليل اتخاذ هذا النهج في كتابه، وهو هنا يسير على منوال ابن المقفع في كتابة الأفكار السياسية والاجتماعية على شكل قصص على لسان الحيوان.

ومعنى هذ أن ابن عرب شاه يعتمد على المفارقة باعتبارها الأداة الفنية الأكثر تأثيرا في المتلقي حيث يكون ذهنه مهيئ لأمر ثم يفاجأ بأمر آخر، كما أنها الأداة الفاعلة في السرد بصورة عامة وسر من أسرار خلود اعمال روائية وسردية كبيرة، واستحضر هنا قول سيزا قاسم في بحثها العميق المنشور بمجلة فصول بعنوان " المفارقة في القص العربي المعاصر" حيث تقول عن المفارقة: "ومن جانب آخر تمثل المفارقة موقفًا من التراث الحضاري حين تتجه إلى إعادة تقيم التراث الفني المورث من خلال إعادة صياغته وتشكيله وتفسيره وتحويله، وقد نقول في النهاية إن المفارقة هي استراتيجية الإحباط أو اللامبالاة وخيبة الأمل، ولكنها – في الوقت نفسه – تنطوي على جانب إيجابي؛ فقد تنظر إليها على أنها سلاح هجومي فعال، وهذا السلاح هو الضحك ، ولكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضحك الذي لابد أن ينفجر"(٢)

وربما بشيء من التأمل سنجد أن الكتب التي صيغت على لسان الحيوان في التراث العربي سواء كليلة ودمنة والحيوان للجاحظ وكتاب ابن عرب شاه ينطبق عليها أكثر مما قالته سيزا قاسم ، ولكن ابن عرب شاه دعم

(١) – انظر السابق نفسه

(٢) – سيزا قاسم : فصول ع٢ عدد ٣ خريف ١٩٨٢، ص: ١٤٤

قصصه بآيات من القرآن الكريم ليصبغ عليها لونا من التوثيق وبيان الهدف وليحصن نفسه أمام غدر الحكام بعدما حدث لابن المقفع ما حدث.

(١)

يمثل القرآن الكريم مصدرًا رئيسًا في الكتابة العربية؛ فمنذ نزوله وهو مصدر إلهام للعقلية العربية، ليس بوصفه نصًا إلهيًا مقدسًا وحسب، وإنما هو نص بليغ فصيح، يسهم في الارتقاء بالنصوص التي تستعين به، وقد نص على ذلك كل من امتهن مهنة الكتابة في العصور القديمة، وكانت عدة الكتاب في هذا الزمان مثل القاضي الفاضل الذي لم يعد للكتابة سوى حفظ كتاب الله وديوان الحماسة فحسب، وقد عد ابن الأثير الاستعانة به من أركان الكتابة فقال : "الركن الخامس: أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية؛ فإنها معدن الفصاحة والبلاغة، وإيراد ذلك على الوجه الذي أشرت إليه في الفصل الذي يلي هذا الفصل من حلّ معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية أحسن من إيراده على وجه التضمين"[١]

فالأثر الديني هنا هو أساس البلاغة، ولابد للكاتب تضمين نصوصه شيئًا منها إما صريحة بذكر الآية في النص مباشرة أو بثها في ثناياه.

يظهر القرآن الكريم في فاكهة الخلفاء بوصفه الكتاب الأساس العمدة الذي يستقي منه ابن عرب شاه مادته، فلا تخلو صفحة من صفحات الكتاب من الاستعانة به، ويتجلى ظهور النص القرآني في فاكهة الخلفاء بصورة متعددة منها:

الظهور المباشر بالأخذ من النص القرآني آية أوعدة آيات، تظهر في النص بصورة مباشرة، وهذا موجود في كل الكتاب منذ البداية وحتى النهاية ولنا ان نتخيل أن خطبة الكتاب وحدها تضمنت خمس عشرة آية قرآنية بصورة

(١) – ابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت ١٤٢٠ هـ، ج١/٨٩.

مباشرة بدأها بقوله تعالى: **{وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ}**[١]، وختم الخطبة أحطت بقوله تعالى **{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ }**[٢]على لسان الهدهد وفيها مدح للحيوان وعلمه الذي قد يحيط به ولا يعلمه الإنسان حتى لو كان نبيا وهبه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وهي رسالة مبطنة لما يحمله هذا الكتاب من معان سامية يقصدها من إبداع هذه القصص على لسان الحيوان.

وهنا يتجلى أمران مهمان جدا، الأول أن ابن عرب شاه كان واعيًا جدًا ومنتبهًا إلى معاني القرآن الكريم، ومستوعبا مقاصد قصة سليمان مع الهدهد، فكأنه يرسل رسالة إلى الوالي أو الحاكم ألا تغتر بملكك ؛ فقد سبقك إلى هذا سليمان الذي طلب ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع هذا فإن الهدهد أعطاه درسًا بليغًا في الإيمان، وفي معرفة ما لم يعرفه، فعليك أيها الحاكم/ الخليفة إلى المعاني التي أقصدها من وراء حكايات الحيوان التي سأحكيها في هذا الكتاب ، ويدعم موقفه بنصائحه بخلاصة تستمد من آيات القرآن الكريم ومعانيه، فافهم ما سأقول.

أما الأمر الثاني الذي يحسب لابن عرب شاه هو أنه أدرك أن الحكي على لسان الحيوان أوفى من الغرابة في الفن القصصي أو في الأدب بصفة عامة، كما يقول شاكر عبد الحميد في كتابه الضافي(الغرابة : المفهوم وتجلياته في الأدب) " يكمن جوهر الغرابة في الحياة ، وفي في الفن وفي الأدب في تلك العلاقة التي توجد بين الموت والحياة ، وكذلك في آلية التكرار ، في انتفاء الألفة وغياب الشعور بالأمن، وحضور الخوف في الحياة...

(١) –الذاريات:٢٠ –٢١]
(٢) – [النمل:٢٢]

والأكثر غرابة من هذه الغرابة نفسها أن تتحول الأشياء التي كان ينبغي النظر على أنها غريبة إلى أشياء عادية ومألوفة " [١]

وكل هذا يتجلى في كتاب فاكهة الخلفاء، ويمكن أن نقول إنه في معظم الكتب التي ألفت على لسان الحيوان في الأدب العربي، فمعظم من كتبوا كانوا يستشعرون الخوف، وإلا ما كتبوا قصصهم على لسان الحيوان، ثم صار ما كتبوه مألوفا للناس بعد أن كان في بدليته غريبا عليهم

ويظهر هذا الاعتماد على تلك الثقافة الدينية القوية المستمدة من القرآن الكريم حين يستحضره في كل موضوع؛ فإذا انتقلنا مثلا إلى الحكايات التي يزخر بها الكتاب نجده يستشهد صراحة بالآيات ومن ذلك في قصة (حكاية السلطان محمود بن سبكتكين مع وزيره) يختم حكاياته بنص مباشر للقارئ على لسان الراوي ينصح فيها السلطان قائلا:" فإن من أحسن أوصاف الملوك والأكابر أن لا يغفلوا عن تفقد أحوال الصعاليك والأصاغر ولا يقتصر وافي ذلك على نوع دون جنس كما يفعله لغلبة الهوى بعض حكام الأنس مع أنهم مسئولون عن جليلها وحقيرها ومحاسبون على كبيرها وصغيرها وفي شأنهم قد قال من في ضبط حركاتهم وملكاتهم استقصاها **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا}**[٢]، وقد تنبه لهذا الفعل الرجيح أيها الوزير النصيح والمنطق الفصيح أنو شروان"

[٣] وهنا يدخل النص القرآني في السرد بصورة واضحة من خلال ذكر الآية فبعد سرد الحكاية يلجأ إلى المباشرة في النصح لتوضيح الفكرة بصورة واضحة لا يحتمل معها اللبس ، وذلك بذكر الغرض وهنا يخرج من الفنية إلى

(١) – شاكر عبد الحميد: الغرابة : المفهوم وتجلياته في الأدب ، ، سلسلة عالم المعرفة ، الكتاب رقم ٣٨٤، ص:٨.

(٢) – [الكهف:٤٩]

(٣) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ٣٤٣

المباشرة الخطابية التي تؤثر بلا شك في جمال العمل الفني ثم يتلو ذلك بالتأكيد على تلك الفكرة من خلال الاستعانة بنص قرآني، يظهر من هذا النص المستخدم دلالته القوية التي تعبر عن النهاية فقد وضع الكتاب كناية عن نهاية الأمر، مبرزًا محاسبة كل شخص على فعله مهما يكن صغيرًا، فضلا عن الكبيرة، ثم الندم على ما فيه من الذنوب يوم لا ينفع الندم، وقد ذكر صراحة مخاطبته للوزير الذي ينصحه في النص مؤكدا على تأكيد الغرض من القصة، فيكون النص القرآني هنا هو الحاسم في كلامه المدعم الفكرة بصورة واضحة فيتحول النص المفتوح للقراءة من خلال قصة الحيوان إلى نص مغلق لا يحتمل التأويل، فدلالة وجود النص القرآني دلالة متعالية على نص الكاتب بصورة الاقتباس الواضح الجلي للقارئ الذي يجد النص واضحا دون جهد كبير (١)

فيقوم النص القرآني هنا بدور رئيس في الخطاب من خلال تبنيه للفكرة التي يريد الكاتب التعبير عنها وهي تحذير المتلقي/الحكام عاقبة الظلم وإهمال الرعية، فالاعتماد على النص القرآني هنا يمثل سلطة دينية ذات تأثير قوي في المتلقي ؛ لأنها سلطة "تستمد تأثيرها وقوتها من سلطة عليا هي السلطة الإلهية، ومن ثم فإنها لا تكون محل شك أو دحض، وإنما يذعن لها المخاطب إذعانًا شديدًا، انطلاقًا من فكرة الاسترضاء الإلهي"(٢)

فالتزام الكاتب بذكر النص صراحة في ثنايا فصوله بصورة واضحة يهدف من ختامه رسالة واضحة تعكس أول ما تعكس الثقافة الدينية التي يتمتع بها الكاتب وظهرت جلية في توظيفه للنص القرآني في كل فصوله بحيث اتكأ عليه بصورة تامة، كذلك تعكس صورة واضحة لذلك المتلقي الذي

(١)- انظر: د عبد الناصر هلال: الشعر العربي المعاصر، انشطار الذات وفتنة الذاكرة، ص:

(٢) – د عماد شعير: السلطة والإقناع وموت المخاطب، (دراسة في خطب الحجاج بن يوسف السياسية)، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، يوليو ٢٠١٤م، ص:١٥.

يخاطبه ممثلا في المجتمع في عصره، وفي الوقت نفسه يحمي نفسه من غدر الحاكم ، ويبدو أنه أخذ العبرة مما حدث لابن المقفع ،فإيراد النص القرآني يؤثر في الحاكم/ المتلقي، فيلتفت إليه، وتخمد عنده نار الغضب ضد ابن عرب شاه ، فلا ينكل به لأن القرآن سيؤثر فيه.

وهذه هي طريقته الدائمة في كتابته إذ يحكي القصة ويشرح الموضوع ثم يتجه نحو معينه الأساس يستقي منه الخاتمة الحاسمة ، وهذا واضح جلي منذ اللحظة الأولى ففي خطبة الكتاب وبعد سرده لأسباب اختيار الحيوانات سبيلا في التعبير يختتم كلامه بالكثير من الآيات القرآنية التي تؤكد ذلك فيقول "وقد ضرب الله ذو الجلال في كلامه العزيز الأمثال فقال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كان يعلمون"(١)

والكاتب هنا ذكر الآية صراحة ولم يحلها كما يفعل مع معظم كتاب تلك المرحلة مع الشعر ذلك أن " حلّ آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية؛ لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها، لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملته؛ فإن ذلك من باب التضمين، وإنما يؤخذ بعضه، فإما أن يجعل أولا لكلام أو آخرا، على حسب ما يقتضيه موضعه"(٢)

وقد طبق ابن عرب شاه هذه القاعدة بدقة فأدخل الآية الكريمة في سياق كلامه فجعل كلاما له ثم أدخل الآية الكريمة تضمينا فقال ناصحا الملك " ثم عش واسلم وتيقن واعلم يا ملك الزمان أن أفضل شيء حل في وجود الإنسان وأحسن جوهرة تزين بها عقد تركيبه العقل الداعي إلى كيفية تهذيبه في أساليبه وأفضل درة ترصع بها تاج العقل في تزيينه وترتيبه الخلق الحسن الذي فضل الله به خير خلقه في تعليمه وتأديبه وخاطب بذلك نبيه الكريم فقال وإنك

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، ص:٤٠

(٢) – ابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١/١٢٦

لعلى خلق عظيم وبالخلق الحسن ينال شرف الذكر في الدارين ولا يضع الله الخلق الحسن إلا فيمن اصطفاه من الثقلين وأفضل جنس الإنسان بعد رسول الله الرفيع الشأن الملك الذي يحيى أحكام شريعته ويمشي على سنته وطريقته"[١] فاستخدم الكاتب الآية { **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)** } بشكل نثري مدخلا إياها بصورة واضحة صانعا من ذلك معادلا موضوعيا بين خلق الرسول الكرم الذي نص عليه الله جل وعلا صراحة في آياته وما ينبغي للملك خاتما ذلك بما يلين قلب الملك ويجذبه نحو تلك النصيحة من جعله أفضل جنس البشر بعد الرسول الكريم، وهو توظيف جيد من ابن عرب شاه للنص القرآني.

ويوظف ابن عرب شاه النص القرآني توظيفا سياسيا محمودا في نصح السلطان بالإحسان للرعية مع بيان حقيقة وضعه وهو كونه من البشر لا يزيد عنهم لكن الله رفعه فوقهم وألزمهم طاعته، وذلك في قصة أخبار اللصوص الثلاثة فينهي القصة بتوجيه نص مباشر للسلطان بالعدل بين الرعية فيقول: " ثم اعلم أيها الخاقان إنك وإن كنت ذا التصرف والسلطان وأن هذه الخلائق رعيتك نافذة فيها بمراسيمها منيتك إلا أنك في الحقيقة واحد منهم ؛ لا تزيد عنهم بشيء في الذات والصفات عنهم ولكن الله القديم العالم الحكيم سلطان السلاطين بل خلق الأولين والآخرين رفعك عليهم وتقدم بأمره أن يطيعوك إليهم فقال من له الخلق والأمر: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"[٢]ولاشك في ذكاء ابن عرب شاه وقدرته على حسن التوظيف للنص في ثنايا حكايته التي يحكيها ليجمع بين المتعة الفنية والنصيحة السياسية التي يريد توصليها . لقد حاول ابن عرب شاه أن يربط بين التراث الديني من ناحية وواقعه المعاصر من ناحية أخرى "إن الربط بين التراث من

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:٥١.

(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:١٤٥.

ناحية والواقع المعيش من ناحية أخرى ضرورة يفرضها الوعي العصري؛ إذا الإنسان لا يستطيع أن يضع قدميه على أرض المعاصرة إلا إذا استوعب تراثه استيعابا كافيا، يمنحه القدرة على اكتشاف ذاته الجديدة[١]

(٢)

وبالطبع مع وضوح ثقافة الكاتب القرآنية تظهر في الكتاب الاستعانة بالقرآن ولكن بشكل لفظي ؛ فيعتمد على الألفاظ القرآنية التي تحيلك من فاكهة الخلفاء إلى معنى خاص في القرآن يرتبط بخلفية ثقافية ذات دلالة معينة ومن ذلك إشارته إلى (يأجوج ومأجوج) [٢] وهذان الاسمن المذكورين في سورة الكهف في قوله تعالى {**قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ** }[٣] ، فنقلهما من القرآن إلى حاشية الملك في رسالة واضحة تحمل تحذيرًا للملك من وجود حاشية فاسدة حوله ، فقد وصف الملك بالعدل ثم وجود هذين الشخصين في حاشيته يشيران إلى الفساد في الأرض، وقد قرنهما مع ملك عادل في إشارة واضحة إلى وجوب مراقبة الملك لحاشيته.

كذلك يتفاعل ابن عرب شاه مع النص القرآني ويوظفه في كتابه بصورة تبدو جلية المعنى ، وإن اختلف الغرض فمثلا في وصفه لجسد احد شخصياته في الكتاب يقول " ثم تعرى من لباسه عند الخواص من أناسه لينظروا إلى جسده وباسه فرأوا يدنا كسبائك الفضة وأطرافنا ناعمة غضه وأعضاء تحسبها من الحور غوانيها ، {مسلمة لا شية فيها} فأجمعوا على سلامتها"[٤]، فاستخدم جملة (مسلمة لا شية فيها) ، وهي جزء من آية تتحدث عن جمال بقرة بني إسرائيل وتفردها ، فنقل التشبيه من البقرة للجسد البشري

(١) – د عبد الناصر هلال: الشعر العربي المعاصر، انشطار الذات وفتنة الذاكرة، مصر: العلم والإيمان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠١٠م، ص: ٣٠

(٢) –– ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص ١٣٥

(٣) – [الكهف:٩٤]

(٤) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص ١٠٤

لدلالته على الجمال والرونق لما فيه من تفرد وخصوصية دالة على المعنى المراد ، و كان التشبيه ماديا كما اعتادت الذائقة العربية من الوصف برشاقة الظبي وعيون المها فضلا عن الوصف المتميز عن جنسها ، وتقديس الناس، كما هو الحال بالشخص المقصود وصفه بها أو المقارنة بها، وذلك أن الناس تهاب هذا الشخص الذي ورد في القصة .

ويتناثر هذا الأسلوب في الكتاب ليحيل إلى قضايا متنوعة في الحياة، ومن ذلك الحديث عن الزهد وضرورة التركيز على الدار الاخرة هي الباقية ويجب تعلق القلب بها والبعد عن الدنيا ولا يمكن جمعهما معا فعبر عن ذلك بقوله (ما جعل الله لرجل من قلبين) [١]إشارة إلى سورة الأحزاب وحكم الظهار والتبني في قوله تعالى **{مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ...}**[٢] ، وهو الأمر نفسه الذي فعله مع البروج المشيدة[٣] والتي تصاحب الموت في القرآن الكريم فنقله الكاتب إلى مرحلة الندم على ما فات من عمر الملوك يوم الحساب، بحيث لا تغنيهم عن عقاب الله وحسابه لهم كما لم تغنهم أمام الموت، لكنه يعود فيوظف ألفاظ القرآن الكريم بمعانيها في سياق حديثه فيقول (إلى المدينة ورقهم)[٤] ، في إشارة واضحة إلى قوله تعالى **{...فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ...}**[٥] **.ولاشك أن هذا الاعتماد على الآيات القرآنية " لاسيما من الناحية المنطقية يكسب صاحبها سلطة فعلية على مخاطبه"**[٦] **مخاطبه"**[٦] **وهو بلا شك ما يهدف إليه الكاتب الذي يريد أن يحقق درجة من**

---

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص ١٤٠

(٢) – [الأحزاب:٤]

(٣) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص ١٤١

(٤)– ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص ١٤٢

(٥) – الكهف:١٩]

(٦) – د عماد شعير: السلطة والإقناع وموت المخاطب، (دراسة في خطب الحجاج بن يوسف السياسية)، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، يوليو ٢٠١٤م، ص:٣٥.

من درجات الإقناع لدى المتلقي وهو أعلى سلطة سياسية في البلاد/ السلطان ، فيحتاج المرسل إلى سلطة أعلى من سلطة السلطان والتي لا توجد إلا في النصوص الدينية التي يكثر ابن عرب شاه من توظيفها لتحقيق هذا الهدف.

ثم يتجلى التوجه الديني في خطابه من خلال قيامه بتفسير بعض الآيات التي يستعين بها، فقد يفسر الآية بعد ذكرها تفسيرا تبعا لما يريد من حكايته في تدعيم الفكرة التي يهدف إلى ذكرها وسردها تدعيما للفكرة وممارسة لسلطة النص الديني ففسر الباقيات الصالحات في قوله تعالى**{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً}**[١] فقال فقد جاء في بعض التفاسير أن الباقيات الصالحات هي البنات ... وذلك لأن الكفاءة في الزواج معتبرة ، وقد قرر ذلك الفقهاء البررة، وإن لم يكن الزوج للمرأة كفؤًا فزوجها به يقع سخرية وهزؤا ولا يفيد سوى الغرامة والفضيحة والندامة"[٢]، مستخدمًا هذا التفسير خدمة لهدفه في القصة وهو بيان قيمة البنات وفضلهن. ثم ينتقل من هذا التفسير إلى بيان رأي فقهي يناقش من خلاله الكفاءة في الزواج ، واصفًا الفقهاء الذين يقولون بذلك بالبررة مانحا إياهم الوصف القرآني للملائكة الحفاظ كما جاء في سورة عبس، ثم يؤكد ذلك بنفي المعنى المضاد وهو في معرض الحديث عن زوج لابنة الملك ، وكذلك فعل في تفسيره لقوله تعالى وأخبر به الصادق في الوعد والمقال {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون}[٣]، معنى أن لا تخافوا لا خوف عليكم فيما هو أمامكم ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم فإذا دخل في قبره وجده روضته من

(١) – [الكهف، آية :٤٦]
(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:١٣٧.
(٣) – سورة فصلت الآية ٣٠.

رياض الجنة يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وأما الشقي الغافل الغبي الذي أمهل أمره ونسي الله وذكره وأهمل ما خلق لأجله وتاه في بيداء الضلال وسبله فقد اغتر بهذه اللذة اليسيرة في تلك المدة القصيرة واستمر سكران في ميدان العصيان من خمرة الطغيان وتردى لباس الردى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فانهدمت عمارتهم ولا ربحت تجارتهم [١]، فهو يدخل النص القرآني بصورة الانصهار داخل النص السردي العادي ثم يأخذ في شرحه وتفسيره فهو هنا يستطرد ليخرج من موضوعه الأصلي إلى تفسير القرآن الكريم بهدف توضيح فكرته وتأكيدها ، وهذه التفاسير ليست بالمعنى الحقيق للتفسير بقد ما هي تجليات ذاتية من الكاتب في شكل وعظ خطابي مكرر في نهاية معظم قصصه، هكذا يتجلى القرآن الكريم في كتاب فاكهة الخلفاء متنوعا في صور هذا التجلي ليثبت انه المعين الذي لا ينضب.

وحين ينصح الملك بالعدل يفسر معناه ويشرحه مدللا عليه بأكثر من وسيلة فيبدأ بوعد الله على لسان نبيه ﷺ بالجنة للملك العادل فيقول: "وقال السيد الكامل والسند الفاضل أشرف الأواخر والأوائل صلى الله عليه صلاة تفنى البواكر والأصائل سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله أمام عادل بدأ في هذا الفصل من ذكر الصفات بالعدل والعدل يا ذا الوجه النير الوسط هو الخير قال من أمره قهر وسطا وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء أي للأنبياء تشهدون لهم على أممهم لعدالة فيكم ويكون الرسول عليكم شهيدًا أي يزكيكم أي وكما جعلنا نبيكم إمام القبلتين حائز الفضيلتين جعلناكم حائزين خصلتين بالغين مرتبتين وهما كونكم عدو لا شهداء على الناس مقبولي الشهادة في الأداء وكون الرسول معد لكم وبتزكيته على الأمم مفضلكم وقال ﷺ وشرف وكرم وفخم وعظم عدل السلطان يومًا يعدل عبادة سبعين سنة وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام والذي نفس محمد بيده أنه

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:٩٦.

ليرفع للسلطان العادل إلى السماء مثل عمل جملة الرعية"[١] ، فبدأ بحديث رسول الله عن السبعة الذين لا يظلهم فاختار منها ما يلائم منهجه في الحديث وهو النوع الأول الذي يختص بصفة العدل ثم شرح مفهومه لغويا وهو الوسط، ثم وظف في الشرح الآية التي تحوي لفظة الوسط ، وهو اختيار فيه نظر فلم لم يستخدم آية فيها العدل مباشرة بدلا من استخدام آية يفهم من العدل تأويلا لا تصريحا؟ إنه يهدف هنا إلى طرح قضية وشرحها وهي تفسير الآيات بصورة تحقق الهدف منها، ثم فسر الآية بأن أمة محمد ﷺ شهيدة على الأنبياء لأن فيهم العدالة، فهي الصفة التي كان يدور حولها الكلام، وواصل تفسير ما تلى ذلك من آيات وفق ما يتوافق مع الفكرة التي يطرحها في تحليل مفهوم العدالة، ثم ختم حديثه بكلام الرسول عن الأمر نفسه هادفا من ذلك تليين قلب الملك وتزيين العدل له.

فيحمل السرد هنا بعدًا ثقافيا ذا دلالة خاصة ألا وهي التعامل الذكي مع الحكاية بنية السعي نحو الإصلاح، ومن ثم فلا يميل ابن عرب شاه نحول تلك المباشرة التقليدية ، بل يعتمد أسلوبا متنوعا ذا طبيعة خاصة يهدف من خلاله إصلاح الحكم السلطاني المملوكي؛ فقد أخذ المؤلف عن طريق اعتماد أسلوب السرد القصص والحكي والجدال المتنوع في محاولة لترويض السلطان المملوكي (جقمق) ولعله هنا يتشابه مع ما قدمه ابن المقفع في توصيل رسالته إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وكلاهما وجه نصائحه إلى السلطة العلية بصورة غير مباشرة معتمدا على الحكي على لسان الحيوان والطير، وقد ابتعد كلاهما عن النصيحة المباشرة والوعظ التقليدي، وقد خلط في هذه الحكايات بين الفكاهة والجد أو الهزل الذي يراد به الجد في صورة تبدو للوهلة الأولى مازحة في شكل نوادر يحكيها. ويقلل هذا الأسلوب من القوة الشكلية للنصح التي قد تبدو فيها درجة مكن الغلظة غير المستحبة

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:٥١٩.

في خطاب الملوك والخلفاء، ولكن الملاحظ أن ابن عرب شاه كان أكثر توضيحا وبيانًا من ابن المقفع وفي هذا الصدد استخدم ثقافته الدينية لتكون ستارا يحميه من غضب السلطان، وهذا الأمر تجده قليلا عند ابن المقفع ، وربما كان الأمر يرجع إلى اختلاف الظروف والأحوال السياسية ، فابن عرب شاه يوجه نصحه إلى حاكم مملوكي، ومهما يكن جبروته فلن يكون في مثل قوة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، والثقافة العربية مختلفة عند الاثنين.

(٣)

ومن جملة المصادر الدينية التي وظفها ابن عرب شاه في كتابه الحديث الشريف، فلم تخل صفحة واحدة من صفحاته من الاستعانة بالحديث الشريف بصور متعددة منها التوظيف المباشر للحديث بذكر الحديث كاملا وهو ما تكرر كثيرا في الكتاب؛ فيستخدم ابن عرب شاه المباشرة في حكاياته بصورة واضحة في محضر حديثه عن حسن خلق الملوك الذي يجب أن يكونوا عليه مع رعيتهم فيقول:" وأفضل جنس الإنسان بعد رسول الله الرفيع الشأن الملك الذي يحيى أحكام شريعته ويمشي على سنته وطريقته وإذا كان الملك حسن الخلق والفعال فهو الدرجة العليا من الكمال قال الرسول النجيب صاحب التاج والقضيب محمد المصطفى الحبيب ﷺ صلاة يتمسك بأذيالها الطبيب، ويترنح لنسمات قبولها الغصن الرطيب، ألا أخبركم على من تحرم النار؟ على كل هين لين سهل قريب ، وروى أن ذلك السيد السديد الكامل المكمل الرشيد أتى برجل فكامه فارعد فقال هون عليك فأني لست بملك ولا جبار وأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ومن جملة حسن الخلق العدل والشفقة على الرعية والفضل وإذا حسن خلق الملوك العلية صلحت بالضرورة الرعية طائعة وكارهة وسعت في ميدان الطاعة فارهة فان الناس على دين ملوكهم" [(١)]، فهنا اعتمد على توجيه النصح من خلال الكلام المباشر لبيان

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ٥١

فضل الأخلاق للإنسان ثم دعم كلامه بحديث للنبي ﷺ في الرفق واللين ناقلا الحديث بتمامه في ثنايا كلامه فكان كلامه مطعما بكلام الرسول فاصلا وواصلا في آن فوصل كلامه بكلام الرسول ﷺ مثبتا النص لصاحبه. متكلما عن تواضع الرسول الكريم وحسن خلقه العظيم ليهيئ الملك لقبول فكرته ويقتدي بهديه ويسير على سنته، وهو نصح فيه المباشرة جلية واضحة وبخاصة أن النص طويل مدعم بالأدلة على حسن خلق الرسول الكريم.

كذلك يقرن بين القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر في موضع واحد للتأكيد وتدعيم فكرته التي يريدها فيقول، "وناهيك ما قاله العزيز العليم الذي جبلهن على غير تقويم وفطرهن على الكيدان كيدكن عظيم وجعل كيدنا بالنسبة إلى كيدهن سخيفًا فقال إن كيد الشيطان كن ضعيفا وقال سيد السادات ورئيس الرؤساء ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء وقال الولي ومن قدره الرفيع على:

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

وقال من أجاد في المقال المسامع بالأقوال حيث قال:

وما حز أعناق الرجال سوى النسا ... وأي بلاء جاء لسن له أهلا

فكم نار شر أحرقت كبد الورى ... ولم يك إلا مكرهن لها أصلا

فهو يريد أن يحذر الرجال عامة والملك بصفة خاصة من خطر النساء وفتنتهن فيوظف الآية الكريمة من سورة يوسف ثم يتبع ذلك بحديث شريف للنبيﷺ ، في الموضوع نفسه ، ثم يستعين بالشعر العربي ، والذي غالبا ما لا يذكر اسم صاحبه ، وتبدو في الأبيات شدة القسوة ففي البيت الأول وصف النساء بالشياطين وأدخل في عجز البيت شعرا فيه تناص مع القرآن الكريم في الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، بل إنه استعاذ من شر الشياطين وفي البيت رد أعجاز على الصدور يحيل إلى تأكيد وصف النساء بالشياطين ، ثم استعان ببيتين للتأكيد على فكرته، ذلك أن من أهم وظائف

الشعر في النثر " أن يؤطر النثر ويوحي به ، ويمهد له، ويزيد من قوة تأثيره، وقد يرجع المعنى النثري في صورة تعبيرية أجمل فاذا بالمعنى المجرد مجرى في صورة حسية واذا بالتقرير ايحاء وغموض بناء يزيد من قيمة النص الجمالية ويشرك المتلقي في البحث عن الدوال"(١)

ويلاحظ هنا أنه نادرا ما يذكر السند أو درجة صحة الحديث الشريف، فجاء الحديث تاليا للقرآن الكريم ويسبق ذكر الحديث الشريف ألفاظ التبجيل والتكريم والتقدير التي تليق برسول الله ﷺ؛ فهو دوما يقرنه بسيد السادات ورئيس الرؤساء .

كذلك يوظف ابن عرب شاه في سرده بعض الأحاديث القدسية التي تخدم فكرته ، فيقول:" وقد رأيت يا أنسي في حديث قدسي اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرًا غيري فلا تطيلي الكلام ولا تتصوري أنك ترجعين إلى مالك من مقام ولا طاقة لك على مقاومة الثعبان فدعي تعب الخاطر واطلبي لك مأوى غير هذا المكان" (٢) ، فهو يلح على فكرة العدل وتحريم الظلم والتحذير منه فيأتي دوما لنصوص ذات سلطة خارجية وهي النصوص الدينية من القرآن الكريم والحديث الشريف والقدسي لما لها من قوة في الإقناع والتأثير في المتلقي "والسلطة المستشهد بها عملها تقوية خطاب يقوله المتكلم ؛ لإضفاء المشروعية أمام مخاطب، على قول أو طريقة عمل، بإرجاعها إلى مصدر يعتبر كفيلا بإضفاء تلك المشروعية"(٣).

(١) – د عبد الله البهلول: في بلاغة الخطاب الأدبي" بحث في سياسة القول"، تونس: قرطاج للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م، ص:٨٨.

(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:١٧٦

(٣) – باتريك شارودو ودومنيك مونغو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، تونس كلية الآداب بمنوبة، د.ت، ص: ٨٧.

(٤)

يستقي ابن عرب شاه بعض قصصه من التراث الديني بصورة مباشرة ، لكنه يتفاعل معه ويطوعها لهدفه التربوي التوجيهي فيأخذ منها بقدر ما يحتاجه منها، فيستقي قصة عنده من بعض كتب التفاسير وينتقي منها جزءا كما فعل في قصة أخبار اللصوص الثلاثة وهي قصة طويلة في كتب التفسير ذكرها الطبري مثلا في تفسيره للآية ٥٢ من سورة آل عمران بسندها في النسخة المطبوعة في أربع صفحات ، ذكرها ابن عرب شاه في حدود الصفحة وهي قصة تحكي عن عيسى عليه السلام ومعه رفيقه في الطريق، فيكذب الرفيق على المسيح الذي يعرف أنه كذب، ولكنه يحاول أن يجعله يعترف بالحقيقة، فيسير معه، ويريه معجزات عجيبة؛ منها إحياء الموتى، والمشي على الماء وغيرها. ويرفض الرفيق الاعتراف بالحقيقة، حتى يضطر للاعتراف عندما يتعلق الأمر بمال كثير سيناله، ويمر عليه ثلاثة لصوص يقتلونه ويسرقون ما معه، ثم يقتلون بعضهم البعض خيانة وطمعا في المال كله، فيموت الجميع ولا ينال منهم أحد شيئا[١]، ينقل ابن عرب شاه الجزء الثالث من القصة وهو قتل اللصوص لبعضهم طمعا بعض امتلاك المال[٢]

وبالرغم من طول القصة في كتب التفاسير فإنه يختصرها، وينتقي منها ما يتوافق مع الفكرة التي يريد أن يناقشها ثم يعلق عليها واصفا إياها بالموعظة موضحا الغرض الرئيس من ذكرها وهو التذكرة يقول: " وإنما أوردت هذه الموعظة لأنها على أحوال الدهر موقظة، وإن كان مولانا الخاقان في

(١) – الطبري ت٣١٠ هـ: تفسير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م، ج٥/ ٤٣٧ – ٤٤١. وانظر أيضا عند ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٧/ ٣٩٥، وقد ذكرها ابن عساكر مختصرة ودون مصدر .

(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ١٤٣ –١٤٢

أموره يقظان لكن قد قال رب العالمين وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين. واعلم يا مولانا الخاقان كفاك الله مكايد الشيطان وأنجح مقاصدك على ممر الزمان أن الدرجة العلية والمرتبة السنية لا تنال بقوة ولا عزمه ولا شجاعة ولا همه وإنما هي عناية ربانية وأسرار رحمانية لأقوام سبقت لهم من الله وزيادة" (١)

فيعتمد منهج التذكرة مستدلا كعادته بالقرآن الكريم بصورة واضحة بإدخال آية التذكرة مع المدح للملك المخاطب ليحفظ له قدره، فيجمع بين حسن الحكي وجمال الوعظ وقوته ، فيتقمص ابن عرب شاه "دور ناصح السلطان متوهما أن السرد على الطريقة الرمزية سيسهم بدوره في ترتيب أمور الدولة وتقوية دعائم الحكم وذلك بعيدًا عن الولوج في عالم النصح المباشر"(٢).

وفي مجال تحقيق هدفه والوصل إلى مبتغاه لا يتوقف عن المجيء بحديث من الإسرائيليات كما فعل في القصة السابقة بل إنه يذكر قصصا غريبة في مجال النصح للملك "ولا يستحقر النصيحة أن كانت صادقة صحيحة ولا الناصح خصوصًا الرجل الصالح فان سليمان وهو من أجل الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وأحد من ملك الدنيا وحكم على الجن والأنس والطير والوحش والهوام استشار نملة حقيرة فنجح في أمره وخالف وزيره آصف بن برخيا فابتلى بفقره وسلب من جميع ما ملك وصار كما قيل أجير الصياد السم

ذكرت كتب التفسير أسبابا كثيرة لسلب ملك سليمان أجملها الشيخ سيد طنطاوي في التفسير الوسيط في تفسيره للآية(٣٤) من سورة ص عن فتنة سيدنا سليمان، وليس من بينها ذلك السبب الذي ذكره ابن عرب شاه في كتابه بل إن اسم آصف بن برخيا لم يرد في كتب الصحيح إلا عند النسائي وإنما ورد في الحديث عن الإسرائيليات واختلفوا في حقيقته هل هو نائب سليمان ام

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ١٤٣

(٢) – د أحمد علواني: السرد في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء (آلياته ودلالاته)، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩م، ص:٣٤.

كاتبه وأمين سره ام رجل يعلم اسم الله الأعظم وهو الذي أحضر عرش ملكة سبأ ، لكني لم أقف على مصدر حكايته الغريبة هذه التي ساقها في كتابه لأقناع الملك بالاستماع إلى النصيحة من أي شخص، ومن مبلغ الغرابة نزول ملك سليمان حتى يعمل أجيرا عند صياد، وفيه مبالغة لانحطاط المكانة وتدنيها، وفيها تلميح بخراب ملكه فهو لن يكون اعظم من ملك سليمان الذي سلبه الله نتيجة عدم استماعه للنصيحة على حد قوله فهي نصيحة مبطنة بتحذير خفي من الكاتب للملك على ملكه ، وهو أسلوب ذكي غريب في توظيف قصة من القصص الغريبة لصالح هدفه .

كذلك يعني بذكر الفقهاء وآرائهم في غير القرآن الكريم إن كانت تخدم فكرته التي يعرض لها فقال:" فاستعد للأمر قبل نزوله وأتأهب للخطب قبل حلوله واحتال لقطعة وصوله وأحله قبل أن يعقد وأقيمه دون أن يقعد وهذه قاعدة للفقهاء وأصل كبير للحكماء من العلماء أنهم قالوا أن الدفع أهون من الرفع"(١)

وهو يقصد هنا القاعدة الفقهية المعروفة (منع الضرر مقدم على جلب المنفعة)، وهو ما أشرت إليه في البداية عن دور الغرابة في التأثير في المتلقي الذي يجذب انتباهه دائما الأمور الغريبة ، وأحيانا تكون أكثر إقناعا .

(٥)

يظهر الاتجاه الديني في فاكهة الخلفاء بصورة فيها درجة من الخصوصية تبرز مدى التزامه الديني من ناحية والأخلاقي الاجتماعي من ناحية أخرى، فهو يتعامل مع بعض القصص ذات الطبيعة الخاصة بأسلوب متميز وبخاصة فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي؛ فيلجأ ابن عرب شاه إلى الكناية عن الفعل والتلميح عنه متجنبا القول الصريح ، وبرز ذلك في أكثر من موضع ففي حكاية (زبيدة ذات النطاق) وهي قصة فيها الخيانة الزوجية نتيجة

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص:٤٦٠.

للفقر الشديد وفساد الأخلاق والفقر الشديد بالإضافة إلى سوء التربية، فيجلس الضيف يتناول طعانه في مواجهة زوجة المضيف فيراها منكشفة أمامه فتهيج نفسه يقول ابن عرب شاه: "فتنبه أمام هواء الهاجد وجعل يقوم ويقع وهو راكع ساجد ويسلم على محرابه أحسن التحيات ويتشهد رافعًا إصبعه بالسلام والصلوات ثم غلبته الحيرة فاخذ يجلد عميره فنظر صاحب البيت فرأى الضيف غارقا في ذيت وذيت مشغولاً بكيت وكيت متأملاً معنى هذا البيت:

وعند الملتقى انكشف المغطى..... ... [1]

فأراد أن ينبه ربة البيدار على هذا العثار لتستر حالها وتغطي مالها بطريقة لا يؤبه إليها ولا يقف ضيفها عليها فمد يده إلى سفود وحرك به النار ذات الوقود فعلق من النار به في الطرف وما شعر بذلك أحد وما عرف ثم لعب ساعة بذلك العود وأوصل في خفية طرفه إلى ذلك الشق المعهود لتيقظ فتحفظ فشوظها وأجرها وأحرق رأس السفود بظرها فالتأمت وانضبطت واحترقت واختبطت وتحركت بزعجة فضرطت فزادت فضيحة الأنف والأذن ولم يحصل من تلك الحركة إلا الخجالة والغبن"[2] ، فهنا نحن نقف أمام توجه ديني أخلاقي خالص حتى مع شدة خصوصية الحكاية وما تحويه من معان خارجة عن الحياء مجد أنه يكني عن كثير من المعاني مثل(يجلد عميره[3])

---

(١) – هذا البيت محذوف العجز اختصار لبيتين لابن سناء الملك وليسا موجودين في ديوانه ورواية البيتين:

يا هذه لا تستحي مني قد انكشف المغطى

إن كان ... قد تثا ءب إن أيري قد تمطى

وقد ذكرهما العباسي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ج٢ /١٢٠، ولم يذكر ابن أبي الإصبع العدواني البيت الثاني مصرحا أن فيه ألفاظًا صريحة لأعضاء الجسم التي يستقبح ذكرها، تحرير التحبير ص:٢٧٣.

(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ١٨٠ – ١٨١.

(٣) – يكني هنا عن الاستمناء

كناية عن الفعل باليد ، ثم يأتي المعنى العام لفعل الزنا نجده يقول (وأوصل في خفية طرفه إلى ذلك الشق المعهود) و (وأحرق رأس السفود بظرها) (فالتأمت وانضبطت واحترقت واختبطت) وهي ألفاظ واضحة عن فعل الجماع والإيلاج لكنه يعتمد الكناية في التعبير ، والرغيب في سرده أنه يكني عن المعاني لكنه يذكر الألفاظ التي تعبر عن أعضاء جسم الإنسان التي يستقبح ذكرها وهو ما تجلى في اكثر من موضع من كتابه ، فيفصل بين أمرين اللفظ والذي لا يرى حرجا في ذكره والاستشهاد به في متن كتابه ، والمعاني التي يكني عنها .

ويبدو أن هذا نهجه في سرده فقد كرر الأمر في (من حكايات كيد النساء) يحكي موقفا عن امرأة عابثة بشيخ عابد فيقول على لسان امرأة وصفها بـ(اللاعة) [١] ويقصد بها المرأة المليحة البعيدة عن الريبة وإن كانت تطمع الرجال فيها بكلامها ودلالها، فيقول " فقالت: حبيت وحييت لا تستح واصنع ما شئت فحركت بهذا الكلام العابث من الشيخ الحكيم الرمح الثالث فمد إليها يد الفاجر العائث وذهب لب ذلك الرجل الحازم، وراودها مراودة العازم الجازم، وصارت تلك اللاعة بين الأطماع والمناعة تنثني وتنقصف فتارة تتثقف وأخرى تتخسف وبينما هما في المجاذبة جاء زوجي وهو عنيف عنيد فسلب الفرار وطلب الغرار ووقع ذلك الحكيم النبيه في فتنة فيها الحليم سفيه ودهمه ما هو أهم مما هو فيه من دواهي العشق ودواعيه ونسى العشق والعشيق وطلب الخلاص من المضيق وأظهر صورة حاله ما عناه الشاعر في قاله:

سألت مجربا طبًا عليمًا ... خبيرًا بالوقائع مستعاذا

وقلت الشهد أحلى أم رضاب ... أم ... الذي للروح حاذي[٢]

فقال وحق ربي النفس أولى ... إذا جر الجزا هذا وهذا[٣]

---

(١) انظر هامش – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ١٩٠

(٢) – مكان النقاط لفظ خارج للفعل

(٣) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ١٩١.

فكنى عن المراودة (بالمجاذبة) وكذلك كنى عن العضو (الرمح الثالث) وهي كناية لطيفة، لكنه ذكر في أول عجز البيت الثاني لفظ الفعل الصريح، وهو تنوع واضح وتغير في الأسلوب بين المباشرة والكناية، والحقيقة إن هذه قضية جدلية ثارت قديما وحديثا واختلف الناس حولها بين مؤيد لذكر الأعضاء التي يستقبح ذكرها من جسم الإنسان والفعل نفسه ووصفه، ومن ذلك كتاب الأغاني والعقد الفريد واليتيمة للثعالبي، وابن الجوزي والشيرازي وأبي نواس وعلي بن ظافر في كتابه بدائع البدائع [١] .(وكذلك الجاحظ الذي امتلأت كتبه بذكر الأعضاء والفعل وكان ابن قتيبة من مؤيدي الذكر لا الكناية بل حذر من رفضها قائلا: "وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين؛ وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة فرج أو في وصف فاحشة، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحم الناس بالغيب" [٢]

بل إنه لا يكتفي بذكر اللفظ صراحة بل يذكره صراحة في قصة تحمل درجة من الغرابة لا يمكن قبولها وتصديقها، وهي قصة المرأة البغدادية مع زوجها وحرفائها الأربعة ، والتي تلتقي مع رفاقها الأربعة في بيتها في غياب زوجها والذي يعود فجأة فيختفي العشاق في البيت وعندما يشك فيها زوجا تدعو الله أن يثبت براءتها بإخراج ملاك يدافع عنها فيخرج في كل مرة عاشق من عشقاها ويضرب الزوج حتى يضطر الزوج إلى الدعوة على زوجته بخروج عفريت يضاجع زوجته امامه فيقول: "فأَخْرِجْ لها من الأرض عفريتا ... وليكن ذلك بمرآى من عيني وأمامي ويبرد أوامي فما صدق صاحب التنور حين سمع

(١) –انظر د. محمد أبو الفضل إبراهيم، مقدمة بدائع البدائع، ص: د.

(٢) – ابن قتيبة: عيون الأخبار، المحقق: لجنة بدار الكتب المصرية، الدار: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة الطبعة: الثانية، ١٩٩٦، مقدمة عيون الأخبار ك– ل.

الدعاء المذكور والنداء المقبول المشكور حتى طفر من مجثمه كالشواظ المسجور وأقام أمام لهوه المصاب واستعمل من قواعد النحو الرفع والجر والانتصاب ورفع العمودين وأولجه المحراب ولا زال ذلك الإمام يتردد في البيت الحرام وقد نال في الحرم آمنا حتى رمى الجمرات وأمنى ثم قبل فاهها وخرج مسرعا من ذراها وخلى الدار تنعى من بناها ، ففتح زيد عينيه وحملق حواليه ثم قال: يا أقذر القحاب هكذا يكون الدعاء المستجاب"[١] ، فالحدث غريب والدعاء أغرب ولا يمكن قبول الحدث منطقيا ، كذلك ذكر الكاتب لفظ الفعل الذي أرداه الزوج صراحة ، وقد استخدم الكاتب في حكيه الكناية بعد ذلك بصورة جلية عن الفعل منذ البداية وحتى النهاية ، ومنح الخيال حقه في تصور المشهد كاملا (الرفع والجر) ثم نحى (النصب) المكمل لعلامات الإعراب وعدل عنه إلى (الانتصاب) ليظهر الصورة التي يريد إبرازها وهو التعبير عن عملية المواقعة ثم كنى (بالعمودين- المحراب- يتردد- البيت الحرام- الحرم- آمنا- رمي الجمرات) قاصدا(الساقين – فرج الزوجة- الإيلاج- الفرج- الفرج – مطمئنا من عدم العقاب- القذف) ثم خرج من الكناية إلى التصريح بقول(وأمنى ثم قبل فاهها وخرج) والكناية هنا بلغت درجة عالية مقترنة بالدليل على المعنى المراد إيصاله والذي كان جليا من خلال سرد القصة لكنه أكد هذا لدليل بالتصريح في آخر النص المذكور ، إن توظيف هذه الألفاظ والمعاني الدينية المرتبطة بشعيرة الحج يجعلنا نقف عند طبيعة المنهج الذي اعتمده الكاتب في كتابه بين الحرص على الدين في والجانب الأخلاقي وربط واقعة فاحشة بشعيرة من شعائر الحج وهي من شعائر التي نص عليها في كتابه.

وكرر هذا الأسلوب في موضع آخر " قال: صدق سيد المرسلين": النساء ناقصات عقل ودين، ثم أقسم بحياتها، وحسن ذاتها وصفاتها، ليولجن

(١) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ٤٥٢

... في الكثيب. بمرأى من ذلك الرقيب، حتى إذا فرغ من أمره، يمسح في منقاره رأس ...، ليعملها صحة ما أوهمها، ثم حاورها وغلبها، وساورها وقلبها، وحل الصدر بالتكة وتعلقت الحلقة بالسكة، وامتزجت الألف العربية بالكاف الكوفية، والتهم زر الوردة الصبيبة شفاه الوردة النسرينية ، واستمر في أخذ وعطاء ولا وطاء ، كأنهما أفواج الحجاج، أو ثباج الأمواج[١] في شيل وحط، وقبض وبسط، وهرج ومرج، ودخل وخرج، واستمر من نحو هذا التصريف في بحث الرفع والجر، ومن علم المطاردة والركوب في صنعة الكر والفر، ومن علم الزندقة والإلحاد، في عالم الحلول والاتحاد، إلى أن دفق الإبريق العقيق، في قدح اللجين شراب الرحيق"[٢]، ينهج ابن عرب شاه هنا نهج النص السابق في المزج بين الجانب الديني من خلال البدء بحديث لرسول الله ﷺ ثم يأخذ في السرد مع الوصف الدقيق المعتمد على التصوير الجمالي (فيبدأ بالشعر قبل النص وهو شعر أخلاقي ديني بالدرجة الأولى وهو قوله (وامتزجت الألف العربية بالكاف الكوفية) ليرسم صورة تخيلية بديعة لعملية اللقاء في الجماع بين الرجل والمرأة ، فجسد صورة الرجل المستقيم فوق جسد المرأة في وضعيتها بجملة شديدة الدقة ، ثم يكمل رسم تلك الصورة التخيلية اكملها برسم الصورة لجسد مائل إلى الأسفل يمتزج ويلتهم وردة بيضاء عطرية نفاذة الرائحة، وهي وردة النسرين ، كناية عن بياض تلك المرأة وطيب رائحتها ، ثم يصف تفاصيل العلاقة المتبادلة على غير الوطء العادي مشبها تلك الصورة بأفواج الحجيج المتدافعة والأمواج المتلاطمة المندفعة ، ومع جمال الصورة لكن تشبيه تلك

(١) – ثبج الموج: تجمعه واندفاعه

(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، طبعة دار الآفاق العربية ص:٣١٧، وطبعة قصور الثقافة ص: ٣٢٢. واللفظ هنا للطبعتين معا لوجود اختلاف واضح في النص بين الطبعتين وجمل موجودة في طبعة دار الآفاق ليست موجودة في طبعة قصور الثقافة، كذلك جميع الألفاظ التي يستقبح ذكرها مذكورة في طبعة دار الآفاق العربية ومحذوفة من طبعة قصور الثقافة، ولكن باقي التوثيق طبعة قصور الثقافة.

الحالة وبخاصة في الزنا بأفواج الحجيج يرسم صورة عجيبة لتلك العلاقة يكملها بإدخال عناصر لفظية لقضايا فلسفية ودينية ممثلة في (الزندقة والإلحاد، الحلول والاتحاد) وثم شبه لحظة النهاية بأبريق يتدفق في إناء من لجين .

يؤكد ذلك الاختلاف والتباين بدايته المعتادة ببيت شعري يحيل إلى معان دينية أخلاقية وهو قوله

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل على رقيب[١]،

ففيه الوعظ والتخويف، وهو مفتتح يهيئ النفس للوعظ والعبرة ، وبخاصة لو كان المثل التالي مكملا للبيت في العظة ، لكن الكاتب يصدم القارئ بذلك المثل الممتلئ بتلك الصور والخيالات والعبارات ذات الإيحاءات الجنسية التي لا تخطئها عين القارئ وهنا يبرز منهجه في الفصل بين الجانب الأخلاقي من ناحية وذكر مثل هذه الألفاظ مع الوصف الدقيق للعملية دون أن يتحرج من ذكر العملية الجنسية صراحة مناقضا نفسه حينما ذكر في الكتاب نفسه بقوله "وإن لم تفصحوا بالعبارة فقد دللتم على ذلك بالإشارة وكنيتم عنه بالتلميح والكناية أبلغ من التصريح"[٢]

صحيح أنه كنى كثير لكنه كان يصرح بالألفاظ التي يتحرج من ذكرها، وكان الوصف مكشوفا وإن كان بلغة الكناية ، وهو هنا يخالف النهج الذي سلكه من قبل ابن أبي الأصبع وإن اتفق معه في تعريف الكناية فقال : "وهي أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالطاهر، كقوله سبحانه: " كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ" [٣] كناية عن الحدث. وكقوله

(١) – نفسه
(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ١٩٥.
(٣) – سورة المائدة: الآية:٧٥.

تعالى: " أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ" [١] كناية عن قضاء الحاجة، وكقوله ﷻ: " وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا "[٢] كناية عن الجماع، قال امرؤ القيس:

[الطويل]

ألا زعمت بسباسة الحي أنني كبرت وألا يحسن السر أمثالي[٣]

ذهب كل من فسر شعره من العلماء أنه أراد بالسر الوقاع، وكقوله سبحانه: " وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ "[٤] يريد به ما يكون بين الزوجين من المباضعة، وكقول الله تعالى: " الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ "[٥]، وهو سبحانه يريد الزنا. وعلى الجملة لا تجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز يأتي إلا بلفظ الكناية، لأن المعنى الفاحش متى عبر عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيبًا من جهة فحش المعنى"([٦])

فكانت قواعد ابن أبي الإصبع صارمة تماما بينما كانت قواعد عرب شاه مرنة إلى درجة كبيرة، وهو ما يؤكد فصله التام بين الدين من ناحية وذكر الألفاظ التي يتحرج من ذكرها ويراها بعض الناس خارجة عن الآداب.

وتكرار ذكر تلك المواقف المختلفة للحياة الزوجية لبعض الزوجات تشعرك أنه يعبر عن الواقع الحالي وما فيها من خيانات وعدم تقدير من الزوجات لتعب الزواج كما جاء في عدة قصص يظهر تركيز ابن عرب شاه

---

(١) – سورة المائدة: الآية ٦

(٢) – البقرة: الآية: ٢٣٥.

(٣) – ديوان امرئ القيس، الديوان ص:٢٨.

(٤) – سورة النساء: الآية :٢١.

(٥) – سورة النور: الآية :٢٦.

(٦)– ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق/د. حفني محمد شرف، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥م.، ص:٤٣.

على الجانب الأخلاقي عامة والديني بصفة خاصة ، وبعيدا عن قصص الخيانات الزوجية في الكتاب نجده يعرض لطريقة اختيار الزوج المناسب للابنة كما جاء في قصة زاغة وامها مع البومة وابنها وفيها ترفض زاغة الزواج من ابن البومة لأنه شخصية حقيرة مرفوضة من الناس "وهذه الحكاية الرمزية – فيما يبدو لي – حملت حديثا ذا مغزى أخلاقي عندما ناقشت قضية اجتماعية تتلخص في كيفية اختيار الزوج المثالي" [١]، وهو توجه ديني بلا شك فقد أكد رسول الله ﷺ على ضرورة إعطاء الحق للبنت في اختيار الزوج واحترام رغبتها، وحسن اختيار الزوج لها وهو ما برز واضحا في تلك القصة.

(٦)

حاول ابن عرب شاه أن ينوع في كتابه ترويجا لفكرته التي ينطلق منها وهي إعلاء الجانب الأخلاقي المستمد من الفكر الديني ، ولذلك نجد أنه ينوع في آليات الحكي بين قرآن وحديث وشعر وقصص ، وتحفل قصصه بالكثير من الأمثال التي تزخر بها صفحاته، فيأتي المثل عنده في صور متنوعة مختلفة منها ما هو مباشر وحده دون أن يكون في حكاية من حكايته ، ومن ذلك قوله "وقد قيل في المثل المشهور (النحس المعروف خبر من الجيد المنكور) وقيل أيضًا (خير الأشياء جديدها الأصحاب قديمها) (وأسسوا قواعد أخراكم في دنياكم) و(اغتنموا السعادة الباقية من الدار الفانية) و(عاملوا تجدوا وازرعوا تحصدوا) وتفكروا من أول يومكم أحوال عزكم ومن أوائل عمركم أواخر دهركم ومن ليلة الهلال سرار شهركم"[٢]

فقد ذكر بعضا من الأمثال والحكم متتالية ولا شك أن التوجه الديني واضح في تلك الأمثال والحكم ففيها النصح للعمل للآخرة وترك الدنيا والدعوة

(١)– د أحمد علواني: السرد في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء (آلياته ودلالاته)، ص:٨٨.

(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ٨٧.

إلى الزهد وهي من الوسائل المباشرة في التعبير وإن كان المثل ذاته غير مباشر و"سمي مثلاً لأنه مائل لخاطر الإنسان أبدًا، يتأسى به، ويعظ ويأمر ويزجر، والماثل: الشاخص المنتصب... في المثل ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد يكون المثل بمعنى الصفة"(١)

فالوعظ والتأسي بالمثل من أهم الأسباب التي تجعل اللجوء إليه ضرورة في مثل هذه النوعية من الخطابات التي تهدف إلى النصح والتوجيه، "اكتسب المثل جدليته من تلك العلاقة القائمة إلى وجود التشابه بين عنصرين او ظاهرتين فينتقل بالمتلقي من معنى خاص إلى خاص آخر بل إلى معنى أكثر خصوصية، ينزع منه تدعيما وتكريسا للمعنى الأول"(٢).

ويعتمد ابن عرب شاه المثل في التعبير عن نفسه بصورة مباشرة بأسلوب المدح كما في قوله " نعم أيها الملك العظيم أنا جهينة الخبر، ومزينة الأخيار" (٣) ،وهو يلجأ كثيرا إلى هذا الأسلوب المباشر في النصيحة ، مؤكدا على فكرته برغم ما في هذا الأسلوب من خروج عن حيز الأدب إلى الوعظ وهو ما يقلل من القيمة الأدبية لفن الكتابة " وإن النصيحة كالعسل والحق يصدع(٤) كالأسل، فالعسل يعطي حلاوة ذوقه سواء كان في صحاف الذهب أو في زفة وقاصد الصواب والنصيحة ومن أغراضه لدفع الفساد صحيحة يخاطر بنفسه وماله ويراقب ما فيه حسن مآله وأفضل المعروف إغاثة

(١)- ابن رشيق القيرواني الأزدي (ت: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه: المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ج١/٢٨٠.

(٢) - عماد شعير: بلاغة الحجاج في شعر أبي العلاء المعري، ألمانيا، دار النشر نور ٢٠١٧م، ص: ٢٦.

(٣) - ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ١٥٠، والمثل مذكور عند الميداني: مجمع الأمثال، ٢/٣٢٠

(٤) - يصدع : يفرق، يشق نصفين

الملهوف. سمعت في المثل السائر (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[١]وهذا هو الطور عند ملوك الجور وملكنا أعد ل الحكام وناصر دين الإسلام متصف بمكارم الأخلاق والشيم ومعاملة الكبير والصغير بالمراحم والكرم"[٢]، فيدخل المثل في النصيحة في النص ، كما جعل الحديث الشريف بمنزلة المثل السائر كما ذكر صراحة ، فمزج بين النصيحة والحكمة والمثل والحديث والأُقوال المأثورة في نص واحد تحقيقا لهدفه ، الأقوال والحقيقة أن كل تلك العناصر " ترجع جميعها إلى اهتمام روحي واحد، وهو تلك التجارب الفردية التي يعيشها الناس، وتتلخص في تلك الأقوال الموجزة الحكيمة" [٣]

ثم يتحرز من ذلك بعد تلك المباشرة ليميل نحو تحسين الخطاب وتللين القول بعد كل تلك العبارات المباشرة والتي يشتم منها توجيه اتهامات للمخاطب وهو الملك الذي يتوجه إلى الراوي بالخطاب ؛ فيعدل عن النصح إلى المديح ووصف السلطان الحالي بصفات العدالة والشهامة.

ومنها ما يكون جزءا من حكايته ، يدخل في نسيج النص السردي، بل إنه يقوم بذكر أكثر من مثل في الحكاية الواحدة ومن ذلك قوله:" لأنهم قالوا (أظلم من أفعى)، ومن ظلم الأفعوان أنه لا يكد نفسه في حفر مكان وتهيئة مبان ومغان ،ولكنه حيث وجد مسكنًا اتخذه لنفسه مقامًا وطنًا، وهذا قد عرف مكانك النزه، وهو جبار شره فلا يزايله ولا يقابله، ومن أين يلتقي مثل هذا المأوى وفي المثل (عرف الكلب بيت العميا) فالأولى أن ترتادي لك موضعًا فتتخذ به مقامًا ومرتعًا"[٤]

(١) – حديث رواه أبو داوود والترمذي عنه الترمذي حديث حسن أبي سعيد الخدري، وقال
(٢) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ٤٣٢.
(٣)– نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، ١٩٨٩م، ص: ١٨٢.
(٤) – ابن عرب شاه: فاكهة الخلفاء، ص: ١٧٦.

فقد ذكر هنا مثلين شرح معنى المثل الأول وسبب الذكر، مبينا العلاقة القوية بين الحكاية التي يحكيها والمثل المذكور، مرتكزًا على قضية الظلم، ووصفه بالتجبر والشراهة ثم ربط الموقف بمثل ثان فيها وصف للأفعوان بالكلب مثلا ثانيا لكنه لم يشرحه لدلالة الحال التي في الحكاية عليه، وهو أن الأفعى قد استولت على بيت الفارة.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث يمكنني الوقوف على أهم النتائج الآتية:

ظهر ابن عرب شاه في مرحلة بالغة الدقة من عصر الدولة الإسلامية، وهي مرحلة دولة المماليك، والتي سقطت بعد وفاته بحوالي سبعين عاما، فكانت مرحلة صعبة عانى فيها المصريون من ظلم الحكام المماليك؛ لذلك لجأ ابن عرب شاه إلى الاعتماد على القصص على لسان الحيوان في توصيل رسالته تجنبا لما قد يحدث معه كما حدث مع ابن المقفع.

سعى ابن عرب شاه إلى الاعتماد على النصوص الدينية والأخلاقية وتوظيفها في كتابه بصورة كبيرة فاعتمد على القرآن بصورة مباشرة ؛ لما له من تأثير في النفوس ، وبيان ثقافته الدينية .

لجأ ابن عرب شاه إلى الاعتماد على الحديث الشريف بوصفه مصدرا دينيا ولغويا مهما في كتابه، لمكانة الرسول وأحاديثه في نفوس المتلقي، وإن لم يذكر السند أو يهتم به فهذا ليس مجاله .

ذكر ابن عرب شاه الكثير من القصص الوعظية مختلفة المصادر بين دينية كالعهد القديم وكتب العلماء، بهدف التأثير في المتلقي، وتفاعل معها بالاختصار والشرح .

ذكر ابن عرب شاه في قصصه بعض الألفاظ والحكايات التي يستقبح ذكرها لما فيها من ألفاظ وعبارات يستحى من ذكرها ، وهو بذلك يفصل بين الدين والأخلاق من ناحية وذكر مثل هذه الألفاظ من ناحية أخرى .

اعتمد الكاتب على الأمثال الأخلاقية التي تتلاقي مع وجهة النظر الدينية والأخلاقية ووظفها في كتابه توظيفا جيدا كذلك ظهر الأمر نفسه مع الشعر الذي كثر الاعتماد عليه في الكتاب .

اهتم الكاتب بالقصص التي تعالج الأزمات الاجتماعية خصوصا مع الزوجات وعالجها وعظيا، ودينيا وإن كانت لغته فيها من الغرابة ما يستحق الوقوف عنده، وبخاصة ذكر التفاصيل والإمعان فيها مهما يكن المعنى الذي يعبر عنه في هذه التفاصيل.

اتجه ابن عرب شاه إلى النصح المباشر كثيرًا رغم وضوح المعنى المراد التعبير عنه في قصصه ، وهو ما عد ضعفا فنيا منه ، إذ المغزى من القصة واضح الدلالة لكنه أراد أن يؤكد عليه .

المصادر والمراجع

المصادر:

ابن عرب شاه(ت٨٥٤هـ):

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تحقيق: د محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، ع ٩٤، ٢٠٠٣م.

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: حققه وعلق عليه: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية
الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

المراجع

١. ابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت ١٤٢٠ هـ،
٢. ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق/د. حفني محمد شرف، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥م.
٣. د أحمد علواني: السرد في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء (آلياته ودلالاته)، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩م.
٤. باتريك شارودو ودومنيك مونغو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، تونس كلية الآداب بمنوبة، د.ت.
٥. ابن رشيق القيرواني الأزدي (ت: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه: المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

٦. سيزا قاسم : فصول ع٢ عدد ٣ خريف ١٩٨٢م.
٧. شاكر عبد الحميد: الغرابة : المفهوم وتجلياته في الأدب ، ، سلسلة عالم المعرفة ، الكتاب رقم ٣٨٤، ٢٠١٢.
٨. الطبري ت٣١٠ هـ: تفسير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٩. د عبد الناصر هلال: الشعر العربي المعاصر، انشطار الذات وفتنة الذاكرة، مصر: العلم والإيمان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠١٠م،
١٠. د عبد الله البهلول: في بلاغة الخطاب الأدبي" بحث في سياسة القول"، تونس: قرطاج للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
١١. د عماد شعير: السلطة والإقناع وموت المخاطب، (دراسة في خطب الحجاج بن يوسف السياسية)، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، يوليو ٢٠١٤م.
١٢. عماد شعير: بلاغة الحجاج في شعر أبي العلاء المعري، ألمانيا، دار النشر نور ٢٠١٧م.
١٣. ابن قتيبة: عيون الأخبار المحقق: لجنة بدار الكتب المصرية، الدار: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة الطبعة: الثانية، ١٩٩٦، مقدمة عيون الأخبار ك- ل.
١٤. نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، ١٩٨٩م.